

آليات التواصل الأدبي و مقصدية الخطاب عند عبد القاهر الجرجاني

أ. عقيلة مصيطفى (طالبة دكتوراه)

أ.د مالكية بلقاسم

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

Résumé:

La recherche en cours se préoccupe de retracer les figures théoriques et pratiques de la pragmatique dans la réflexion de Abdelkaheer-ELDJERDJANI qui avait le mérite de déterminer les critères de l'acte créatif (sa méthode, ses outils d'analyse des procédés discursifs) comme condition nécessaire à la réussite de la communication littéraire.

Termes clés : Pragmatique, l'intention de communication, le cotexte, l'Enonciateur, l'Enonciataire.

Summary:

Current research is concerned with finding the theoretical figures and practices of pragmatic reflection Abdelkaheer-ELDJERDJANI who had the merit to determine the criteria for the creative act (its method, its processes of discursive analysis tools) as necessary condition for the success of literary communication.

Key terms: Pragmatic, communicative intention, the co-text, the speaker, enunciatee.

الملخص:

إن هدف هذه الدراسة هو البحث عن تجليات التداولية تنظيرا وممارسة في فكر عبد القاهر الجرجاني، وعن إضافاته في هذا الموضوع، بالبحث عن شروط العملية الإبداعية التي تضمن نجاح التواصل الأدبي، والبحث أيضا عن منهجه وآلياته في معالجة الأساليب الكلامية. وذلك تركيزا على نظرية المقصدية التي هي أساس كل فعل لغوي، فخلف كل فعل كلامي يضمّر قصد ما، فأرشد الجرجاني في كتاباته باستمرار المتلقي إلى السبل اللغوية التي تيسر وصول مقاصده إلى متلقيه .

الكلمات المفاتيح : التداولية - القصدية - السياق - المتكلم - المتلقي .

تستهدف الدراسة البحث في موضوع التداولية في شكلها التراثي العربي، وعن علائم هذا المنهج عند القدامى كفكر وكممارسة لبعض آلياته، والتي يمكن أن يستفاد منها لتلقي هذا الخطاب التراثي التلقيني الأمثل كما أراده سابقونا، و هو من شأنه أن يجنب المتلقي الحديث متاهات التأويل الموهل في الذاتية، و تركيزا على "نظرية المقصدية" كنظرية معرفية باعتبارها تتحكم في كل فعل لغوي، و تحدد شكله ومعناه، وصولا إلى مساءلة إشكالات الإستعمال اللغوي، مع حصر محاور الدراسة حول منجزات عبد القاهر الجرجاني خاصة التي أظهرت للمعاصرين اتفاقا كبيرا مع بعض مفاهيم و آليات المنهج التداولي، حين تجاوز وصف البنية وشكلها النحوي، إلى بحث تأثيرها في المتلقي و قبل ذلك كيفية تلقيه لها .

وعليه تأتي إشكالية هذه الدراسة على النحو الآتي: ماهي أهم القضايا والأدوات التداولية التي دعا إليها ووظفها عبد القاهر في تحليله للظاهرة البلاغية؟ و ما طبيعة الصلات التي حددها بين نظم الكلام و قصدية التواصل؟

يرى الجرجاني أن البلاغة لا تتبني على الألفاظ كقوالب لغوية إلا إذا كان وراءها تيار من المعنى يحركها، فيقول: "إن الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأنًا الخبر الذي يتصور بالصور الكثيرة (1) ولقد بسط في كتبه نظرة خلاصتها وجود تأليفين أحدهما معنوي سابق وثانيهما لفظي لاحق، و تفاعلها ينتج نظماً يحقق المعاني النحوية الموصلة إلى مقصد ما،

و ذلك عين ما ذهب إليه المحدثون منهم أحمد الشايب حينما جعل النظام اللفظي مسبقاً بالنظام المعنوي المرتب في نفس الكاتب، فهذه الصورة اللفظية التي هي أول ما تلقى من الكلام لا يمكن أن تحيا مستقلة، وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر إلى نظام آخر معنوي انتظم وتألّف في نفس الكاتب أو المتكلم فكان بذلك أسلوباً معنوياً، ثم تكون التأليف اللفظي على إثره، وصار ثوبه الذي لبسه أو جسمه إذا كان المعنى هو الروح، ومعنى هذا أن الأسلوب معانٍ مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم (2) و خلال مباحثه في مسألة النظم أكد مراراً أن خلف كل نظم قصد ما عند قائله، وما على المتلقي إلا البحث و الكشف عنه، فيقول: "وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، إن لم يقدم فيه ما قدم ولم يؤخر ما أخر، وبدئ بالذي ثني به، أو ثني بالذي ثلث به، لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة وإذا كان كذلك، فينبغي أن تنتظر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصفة: أفي الألفاظ يحصل له ذلك، أم في معاني الألفاظ؟ وليس في الإمكان أن يشك عاقل إذا نظر، أن ليس ذلك في الألفاظ، وإنما الذي يتصور أن يكون مقصوداً في الألفاظ هو ((الوزن))...." (3)

1- القصدية التداولية من خطاب المقدمات عند الجرجاني: إن القصدية: هي الغاية التواصلية من الخطاب، وإن لصاحب الخطاب إلى جانب مقاصده التواصلية الموضوعية مقصداً تواصلياً إجمالياً، يدرك من خلال مجموع بنى الخطاب (4).

إن "خطاب المقدمات" من أهم الاستراتيجيات التداولية التي اعتمدها الجرجاني في مقدمات كتبه لإثارة اهتمام المتلقي، مستهدفاً تنشيط أدواره لإنجاح عملية التواصل والإبلاغ. و كثيراً ما يعتمد في ذلك إلى الحجة المنتقاة. فيحملها مقاصد تأليفه وقد أشار على المخاطب باستثمارها لضمان تواصل أمثل مع متلقيه

و بذلك فهي تستهدف توجيه المتلقي إلى خصائص مزايا الكلام المتنوعة، حتى يمتلك القدرة على المفاضلة بينها، فيقول: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى "الفصاحة" و"البلاغة" و"البيان" و"البراعة"، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتبني على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها. ووجدت المعول على أن ههنا نظاماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظم، والتأليف، والنسج، والصياغة، ثم يعظم الفضل، وتكثر المزية، حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدم منه الشيء الشيء، ثم يزداد فضله ذلك ويترق منزلةً فوق منزلة، ويعلو مرقباً بعد مرقب، ويُستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتَحَسَّرَ الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في العجز" (5).

وإن الباحث عن مقاصد الجرجاني في كتبه و التي أفصح عنها في مقدماته يلحظ ارتباطها بسياق عصره الإجتماعي والإيديولوجي ، و الذي ينعكس في تلك الأفكار المذهبية التي عبر بها عن توجهه الإعتقادي ، فبدت البنية اللغوية عنده مثقلة بحمولة مقاصدية ، هي أساس العملية التواصلية بين المرسل والمتلقي. (6)

فهذا أسلوب يعكس استراتيجية هامة في التأليف، ذات بعد تمهيدي و تشويقي لما سيأتي بعده، كما توثق عرى التواصل بين الاستهلال وفصول المتن، من ذلك قوله « وليس يتأتى لي أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره، وأن أسمي لك الفصول التي في نيتي أن أحررها بمشيئة الله عز وجل، حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك »(7)

2- مقاصد نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني : إن أهم دافع لوضع هذه النظرية عند عبد القاهر كان دينيا خالصا يستهدف خدمة الدين والعقيدة، إلا أنه تراجع عنه وانحرف عن مقاصده المسطرة مسبقا وربما كان مبررا وجيها له حين شرع في تصنيف رسالة جديدة ليستدرك ما فاته في الدلائل فكتب ((الرسالة الشافية))، ليكشف بها صدور المعارضين في الإعجاز ودلائله، وتقويض حججهم المزعومة والرد عليها (8)

ولقد اصطبغت نظرية النظم بطابع البحث الكلامي وقامت على دعائم جوهرية، أهمها أن أساس النظم هو ذلك المعنى الكامن في النفس أو ما يعرف بالكلام النفسي... (9)

3-المقصدية والفروق في النظم عند عبد القاهر الجرجاني: استطاع عبد القاهر أن يرسم السبل اللغوية التي تيسر على المتكلم توصيل مقاصده إلى متلقيه، فبعد أن أقنعه بحسن النظم وجعل ذلك فرعا من حسن انتخاب المعاني الملائمة للمقام والموقف، أكد أن تمام ذلك كله لا يكون إلا باتخاذ القوالب اللغوية المناسبة، فمنها ما تصلح له الجمل الإسمية، وبعضها إلى الجمل الفعلية أحوج، وأن القصد يتحكم في النظم واختياراته فلكل قصد نظم، و هو ما يشير إليه بقوله: "إذا قلت: ((زيد منطلق))، فقد أثبت الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: ((زيد طويل))، و((عمرو قصير)): فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجههما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: ((زيد منطلق)) لأكثر من إثباته لزيد.

وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك. فإذا قلت: ((زيد ها هو ذا ينطلق))، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله ويزجيه.

وإن شئت أن تحس الفرق بينهما من حيث يلفظ، فتأمل هذا البيت:

لا يألف الدرهم المضروب خرقتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: ((لكن يمر عليها وهو ينطلق))، لم يحسن" (10)

يعني ذلك أن لكل معنى نظم خاص حسب عبد القاهر، فلا يبقى المعنى ذاته وقد تغير النظم. يقول: " واعلم أن هذا كذلك ما دام النظم واحدا، فأما إذا تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى، على ما مضى من البيان في ((مسائل التقديم والتأخير))، وعلى ما رأيت في المسألة التي مضت الآن، أعني: ((إن زيدا كالأسد))، ((كأن زيدا الأسد))، ذاك لأنه لم يتغير من اللفظ شيء، وإنما تغير النظم فقط. وأما فتحك إن عند تقديم الكاف وكانت مكسورة فلا اعتداد بها، لأن معنى الكسر باق بحاله" (11)

ولما كانت الصلة وثيقة بين نظم الكلام وقصدية التواصل بين طرفي الخطاب عند الجرجاني، مما يبعده عن العفوية والارتجال، يكون بذلك الجرجاني سابقا لغيره حين اهتدى إلى قضية تأثر التغيير التركيبي النظمي بالتغيير الدلالي (اللفظي).

4- مستويات الإستعمال اللغوي و النظم البياني عند الجرجاني : و يتميز الكلام بتعدد أنماطه الخطابية، مما يمنح المتكلم الحرية في اختيار النمط الكلامي الملائم لمقاصده والمقامات التي يوجد فيها .

و لقد أولى عبد القاهر المعنى عناية خاصة و منحه قيمة كبرى في العملية الدلالية، وأحلته المحل الأول في الإنشاء لكونه يعبر عن المقاصد والأغراض، و تحليل توجهه هذا هو أن اللفظ قد خصّ باهتمام كبير ومفرط عند السابقين له مقدمين الشكل على المضمون ، لذلك سعى إلى الحدّ من هذه النظرة، إذ تدوب في اللغة حسبه ثنائية اللفظ والمعنى" (12)

أ- المعنى : والنحوي أدرك علماء اللغة والبلاغيون الأوائل أثناء بحثهم في معاني القرآن وسر إعجازه، وفي سعيهم إلى تحديد مراتب الشعراء ومقاييس المفاضلة بينهم وجود مستويين تستعمل فيهما اللغة، أحدهما عام بين الناس في معاملاتهم ولقضاء حوائجهم، وثانيهما يتجاوز الأنماط التعبيرية الألفية ، و قد يحملها وظائف أخرى غير الإبلاغ والتواصل فيصوغ عبارته بطريقة مخصوصة، لا ينكشف معها المعنى بيسر، ، فأطلقوا على المستوى الثاني في المراحل الأولى " الاتساع"، ثم اشتقوا له من الأصل اللغوي الدال على معناه صيغة "المجاز"، بمعنى الطريق والمسلك، إلى أن جاء الجاحظ الذي ربط المسألة بدلالات اللغة، فكان أول من قابل بين الحقيقة والمجاز (13).

إن المعنى هو الذي يتحكم في اختيارات المتكلم اللفظية والتركيبية قصد حصول فائدة ما، وتقسيم الجرجاني للمعنى جرى على هذا النحو: " المعنى" و"معنى المعنى" ويشرح الجرجاني تقسيمه هذا في كتابه الدلائل قائلاً: "تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفرض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر" (14)

وإن حديث عبد القاهر عن " المعنى" و " معنى المعنى" يدل على وجود مستويين من المعنى، ووجود مستويين في المعنى يعني وجود مستويين في استعمال اللغة والكلام الغفل حسب الجرجاني نمط من الكلام يلجأ إليه المتكلم في اختياراته التعبيرية، ولكنه يظل خارج دائرة الأدب و الكلام الفني.

و لم يكن عبد القاهر في الكتابة الأدبية يروج للوضوح الذي يقضي على المتعة الفنية. فحسبه .
" ... اللذة والامتتاع المحقق من القراءة لا تصنعها المعاني الأولى، وإنما المعاني الثانية اللاحقة، والمعنى اللغوي عنده مجرد من كل مزية وفضل، أما إذا كان هذا المعنى تمهيدا ودليلا إلى معنى آخر، لا تدركه إلا الأفهام الجيدة والهمم اليقظة، فهذا ما يهمله ويسعى إليه" (15)

ب- المعنى الشعري عند عبد القاهر الجرجاني: إن المعنى الشعري عند عبد القاهر يحققه النظم تماما، بل هو حصيلة تأليف خاص يقول: "وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي كانت له هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة" (16)

ينقل التركيب الجديد المبني بالإنحراف من المعنى الأليف إلى معنى آخر مرتبط بمقام التخاطب وظروف إنتاجه، "وقد دل عليه الجرجاني بمصطلح "معنى المعنى"، أو ما يسميه هو " المعنى الثاني" فيتعلق بما يرويه المتكلم من أغراض ليربط اللفظ المفرد بالاستعمال فيقول " فاعلم أنهم يصفون كلما قد أعطاك المتكلم من أغراضه، فيه من طريق معنى المعنى، فكنى وعرض، ومثل واستعار ثم أحسن في ذلك كله ووضع كل شيء في موضعه وأصاب به شاكلته، وعمد فيما كنى به وشبه ومثل لما حسن مأخذه، ودق مسلكه، ولطفت إشارته، وأن المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به، ولكن معنى اللفظ الذي دلت به على المعنى الثاني" (17)

فقد يحمل سياق المقام المتكلم على الانحراف بقوله عن الأصل المتواضع عليه إلى ما يعرف "بالعدول أو الإنزياح" يقول في ذلك عبد القاهر: "و إذا كان بينا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم -بأن ذلك حقه وأنه الصواب -إلى فكر وروية، فلا مزية وإنما تكون المزية، ويجب الفضل إذا احتل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر، ثم رأيت النفس تنبئ عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسناً وقبولاً يعدهما إذا أنت تركته إلى الثاني". (18)

فتلك المعاني الثواني لا يدركها إلا ذو ذوق وإحساس رفيع، ولا موقع لها إلا في النص الأدبي.

إن مصطلح عبد القاهر "معنى المعنى" هو ما يمكن تسميته بـ "المعنى الاستنتاجي" في مقابل "المعنى الحرفي" الذي اقتصر على تسميته بـ "المعنى" فقط، والذي يكون في المستوى المستقيم من الكلام، ومثل لمصطلح "المعنى" بما يفهم من دلالة اللفظ: خرج زيد، وعمرو منطلق، الذي أفاد مجرد الإخبار عن زيد بالخروج وعن عمرو بالانطلاق، أما مصطلح "معنى المعنى" فيكون في المستوى المنحرف عن المؤلف من الكلام والذي ساق له المثال التالي: "بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى"، حيث قصد أن يعلم مخاطبه أنه قد علم تردده في أمر البيعة، وبيحت العلاقة بين مصطلحي: المعنى ومعنى المعنى بمفهومي: الكفاية اللغوية والكفاية التخاطبية، فيفهم من الكفاية اللغوية كفاية المتكلم اللغوية فيما له علاقة بالألفاظ وبالتواضع، بينما يدل الثاني على المعنى الاستنتاجي الذي له علاقة بثقافة العرب وعاداتهم وكل ما يتعلق بالسياق الخارجي، وباستعمال اللغة في المواقف الفعلية وكل ما يدخل في إطار البحث التخاطبي، وذلك وثيق الصلة بالمجازات والكنائيات التي تحتاج دائماً إلى قرينة صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي، وبذلك يصبح مفهوماً: الدلالة الهامشية "و" الدلالة المركزية "لا يوازيان مفهومي عبد القاهر السابقين "معنى المعنى" و "المعنى"، حيث أن "معنى المعنى" هو المقصود بالإبلاغ عند عبد القاهر، ولا يتحقق الغرض الإبلاغي للمتكلم حسبه إلا به، واقتصر المتكلم على المعنى الحرفي للكنائيات مثلاً فيمثل عملية الإبلاغ (19)

فقصد "بمعنى المعنى" الإبلاغ أو المعنى المركزي وليس الدلالة الهامشية، أما المعنى الحرفي للمفهوم فليس هو المقصود في ذاته، في التعبير الأدبي، وإنما يفضي ذلك المعنى الحرفي إلى معنى آخر تدل عليه قرينة ما، ويتعلق هذا المعنى الجديد المضاف بمقام التخاطب وظروف الإنتاج والنظم، والنظم البياني هو المسؤول عن إنتاج الدلالة واستخراجها.

ويشرح عبد القاهر أكثر مفرقا بين المعنيين فيقول: "فالمعاني الأولى المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والشوي والحلي وأشبه ذلك، والمعاني الثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني، هي التي تكسى تلك المعارض وتزين بذلك الشوي والحلي" (20)

"وقد استعمل هذا المصطلح عند حديثه عن دور وجوه الصنعة من استعارة و تمثيل في جودة النص وبلاغته"

(21)

يمثل هذا النمط من الكلام الدلالة المجازية التي تظهر ذلك المستوى الرفيع من الأداء اللغوي المختزن لعناصر تاريخية ودينية واجتماعية وثقافية... ومن هنا يظهر الانزياح في التركيب الإسنادي وتبرز دلالاته (22)

و يتجلى "معنى المعنى" أكثر عند الجرجاني في صور البيان المتعددة .

وإن اهتمامه بـ "المعنى الثاني" أو "معنى المعنى" يتجلى في وقوفه على كثير من حالات الانزياح التركيبي والدلالي، التي أبدت مرونة في حركة المتكلم تطويعاً للكلام وتحقيقاً لمقاصده وأغراضه، وذلك بعرضه لحالات مختلفة من النظم تكسب الكلام سمته الأدبية والفنية، كالحذف، والتقديم والتأخير... إلخ، إذ يظهر مع كل ظاهرة بنية سطحية ترتكز على بنى أولية تقوم على المواضع، وتمثل النظام الأساسي للغة الذي يتعرض لحركة انتقالية من البنى الأصلية نحو بنى جديدة تحمل معاني إضافية، وتسمى هذه الظاهرة اللغوية الهامة بالانزياح، وهي حركة لا إرادية لاسيما حين

يكون الانزياح مألوفاً أو متداولاً، وتلك المسافة بين البنى السطحية والبنى العميقة ليست ثابتة بل مختلفة من ظاهرة تركيبية إلى أخرى، حتى ضمن الظاهرة الواحدة، إذ لا تكون الصلة بين البنيتين على درجة واحدة، من ذلك ما نراه في حذف المفعول به المقصود أو المعروف، إذ إنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه، وهو ينقسم إلى قسمين: جلي لا صنعة فيه، وخفي تدخله الصنعة (23)

فهذه المعرفة بكيفيات الأداء اللغوي هي التي تمكن المخاطب من تحديد ما إذا كان المعنى المباشر هو المقصود، أو أنه يتوجب عليه القيام بتأويل، يرى الجرجاني أن الوصول إلى الدلالة المضمرة القائمة في القول يكون بالتوسل إلى اللفظ والمعنى معاً، إذ لكليهما دور مهم في عملية النظم.

5- بناء القصد و قواعد توصيل الدلالة عند الجرجاني : ترتبط المقصدية عند عبد القاهر بمعاني النحو وبالعلاقات التركيبية التي تستوعبها، فلا مقصد بلا تركيب يتوخى دلالة ما، وإذا كانت القصدية غالباً تتعلق بمعنى المعنى فإن إن انتقال الصياغة اللفظية التركيبية إلى العدول والانزياح يتسبب في انتقال المعنى إلى المعنى البعيد المرتبط بالسياق، مما يمنحه الدينامية والحيوية، ذلك " إن فعل المشاركة الحوارية لا يخلو من تأثيرات ديناميكية على المرسل، ثم إن الدينامية هي التي تنشئ التعبير في المعرفة اللسانية، والتغيرات الطارئة على المعرفة اللسانية تؤثر على الكفاية الموسوعية أي مجموع أنظمة التقويم والتأويل" (24)

و يربط الجرجاني نجاح العملية التخاطبية في بدايتها بكفاءة المتكلم الذي يرشده في "دلائل الإعجاز" بأن عليه «أن يدق النظر و يغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت، و أن تتحد أجزاء الكلام و يدخل بعضها في بعض ، و يشتد ارتباط ثان منها بأول و أن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا ، و أن يكون حالك فيها حال الباني الذي يضع بيمينه وهنا في حال ما يضع بيساره هناك ، نعم و في حال ما يبصر مكان ثالث و رابع يضعهما بعد الأولين » (25)

إن عناية عبد القاهر بعملية التخاطب ناتج عن عنايته بأطرافها من (متكلم-مخاطب-الخطاب-السياق-الكفاءة)، مثبتاً أن الصلة وثيقة بين نظم الكلام وقصدية التواصل بعيداً عن العفوية والارتجال، لذلك لا بد للمتكلم المخاطب من استراتيجيات تتحقق بها الكفاءة التواصلية عنده، مما يثمر فهم الخطاب وتأويله من طرف المخاطب، فأرشدته إلى ضرورة أن يدقق أولاً في امكانات اللغة ويختار منها المناسب من الصيغ لمقاصده التداولية، يقول عبد القاهر: "ذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه: فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و "زيد ينطلق" و "ينطلق زيد" و "منطلق زيد" و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد" و "زيد هو المنطلق" و "زيد هو منطلق". وفي "الشرط والجزاء" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج" و "إن خرجت خرجت" و "إن تخرج فأنا خارج" و "أنا خارج إن خرجت" و "أنا إن خرجت خارج". وفي "الحال" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاعني زيد مسرعاً و جاعني يسرع"، و "جاعني وهو مسرع أو وهو يسرع"

و "جاعني قد أسرع" و "جاعني وقد أسرع"، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به من حيث ينبغي له، وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال وبـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في "الجملة" التي تُسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" من موضع "ثم"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكن" من موضع "بل". ويتصرف في التعريف والتكبير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. (26)

وبذلك تتأثر الدلالة بتغيرات البنية التركيبية، وتستفيد البنية البلاغية للجملة من البنية المعيارية اللغوية، ثم

تتجاوزها في الآن ذاته إلى عناصر أخرى فنية ودلالية تتفاعل وتتألف فيما بينها لتتحول إلى قيمة جمالية رفيعة (27)

كما شرح عبد القاهر كيفية اختيار المتكلم للمعاني في الموقف الكلامي، بأن يراعي انسجامها مع بعضها البعض وبتلاحمها يتشكل مقصد الخطاب وغاية التواصل. يقول في ذلك: " فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ" (28)

يشترط عبد القاهر من أجل تبليغ أيسر وضوح القصد، ولتكون قصدية المتكلم واضحة أو قريبة من ذلك، ضرورة أن يكون ثمة تناسب وتساؤل بين المعنى الأول والمعنى الثاني الذي يهتدى إليه عن طريق الأول، وأن يكون ثمة تناسب أيضاً بين القصد وبين المقام الذي يشملها، و ثمة حسبه فرق بين منشئ الكلام وبين منشده. "... وأنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دلالاته، مستقلاً بوساطته، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاف اللفظ، وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله إليك (29)

و بذلك فاختيار المعنى النحوي وحده غير كاف لجودة النظم و للتواصل الأدبي الجيد، فقبل ذلك لابد من تناسب المعنى المختار والمقام الذي وجد فيه.

كما يشترط عبد القاهر للدلالة التي يؤديها الخطاب اللغوي أثناء عملية التواصل "معيار الإعلام المقصود"، وليس كل ما يحمله الخطاب يوصف بأنه (دلالة)، والدلالة عنده تتوقف على أمر خارجي غير لغوي يعود أساساً إلى قصد المتكلم من إعلام السامع، إذ يدل صدقاً على وجود المعنى المخبر به من المخبر عنه أو فيه، أما إن نقل المتكلم الخبر ليعلم السامع على وجود المخبر به من المخبر عنه، دون إثبات أو نفي فكأنه أدخل اللفظ من معناه والخطاب من محتواه، وجلّ الدراسات الدلالية والأسنوية الحديثة أضحت تركز في رصدها للعملية الإبلغية والتواصلية على "البات" أو ما سماه الجرجاني "المُخبر" حتى صارت طبيعة الدلالة المحمولة في الكلام موقوفة على قصد المتكلم في إعلامه المتلقي بالخبر، إذ تؤكد على أيدي علماء الدلالة المحدثين ومنهم العالم (بيرس) (Pierce) أن المعنى ليس ما تحمله الوحدة المعجمية في نظام علائقي مع وحدات معجمية أخرى، وإنما المعنى عبارة عن علاقة معقدة بين أحداث كلامية وأوجه أخرى للواقع الموضوعي (30)

فعبير حسن الاختيار وجودة النظم يعبر المتكلم من المعاني السطحية إلى المعاني العميقة، و دون ذلك تضطرب العلاقة بين المعنيين، و يصعب التواصل والإبلغ (31)

يوضح الجرجاني كيفية انتقاء المتكلم لمعانيه وألفاظه أثناء الموقف الكلامي فيقول: " من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق (32)

وبذلك فالجرجاني يعطي الأسبقية للمعاني في الوجود النفسي والألفاظ تابعة لها في الواقع الكلامي، و في هذا توافق كبير مع فكرة لا نهائية المعاني التي روج لها علماء الدلالة في العصر الحديث .

و لضمان نجاح أمثل في التواصل يرى الجرجاني ضرورة أن يحرص المتكلم على مراعاة حال المخاطب فيقول: "لا يخلو السامع من أن يكون عالماً باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها أو يكون جاهلاً بذلك، فإن كان عالماً لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه، فيكون معنى لفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر وإن كان جاهلاً كان ذلك في وصفه أبعد" (33)

لم يكن الغموض عنده معياراً للجودة، وإنما كان دائماً الإشارة إلى المقدار الذي يتطلبه العمل الأدبي من الغموض، حتى لا يؤدي إلى التعقيد و يبعد عن المقاصد.

فيصبح الغرض هو الذي يستدعي الصور البيانية والبديعية من تجنيس وسجع واستعارة وتطبيق، وليست مضافة بل هي من صميم النظم والتأليف، من أجل ذلك اشترط فيها عبد القاهر الطبع والعفوية.

6- السياق و أثره في إنتاج القول و فهمه عند الجرجاني : إن من الآليات الهامة التي يحتفى بها في المقاربة التداولية السياق بنوعيه : الداخلي للغوي و الخارجي الذي ينقسم بدوره إلى المقام و سياق الموقف ، وما السياق الخارجي إلا "... توالى الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال" (34)

وإن السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النصّ و وحداته اللغوية، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النصّ للقارئ، و يضبط السياق حركات

الإحالة بين عناصر النصّ، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصفها بالتي قبلها أو بالتي

بعدها داخل إطار السياق (35)

يرى محمد حماسة أن للسياق أهمية قصوى في الكشف عن المعنى النحوي الدلالي يقول: "يقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة ولا تكون للعلاقة النحوية ميزة في ذاتها، ولا للكلمات المختارة ما لم يكن ذلك كله في سياق ملائم" (36)

وبذلك فالتفاعل واضح بين العناصر النحوية والدلالية، والتأثير بينهما مستمر، فلا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النص اللغوي و سياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير. ولا يُنكر أن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قُلت بنصها في مواقف مختلفة، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها (37)

إن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها ونصها تختلف باختلاف السياق الذي توجد فيه، لأن كل سياق يختلف في زمانه ومكانه وملابساته المتعددة (38)

إن فهم وظيفة اللغة والوقوف الدقيق على مقاصدها الإستعمالية، لا يكفيه النظر في دلالاتها المعجمية بل يجب النظر إليها "في إطار الموقف الكلامي أو ما يسمى ب "سياق الموقف"، الذي صيغت فيه، والانتقالات إلى جميع مكونات هذا الموقف من متكلم ومستمع، شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافي وغير ذلك، وطبقة المتكلم من حيث ثقافته، وعلمه، وحالته النفسية، ومركزه، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه. تؤثر في استعمال اللغة تأثيراً بارزاً. (39)

إن للنظرية السياقية في مباحث القدامى تجليات نلمسها غالباً في دراسات البلاغيين، الذين ناقشوا فكرة المقام ووضوح الدلالة و كيفية تلقيها في عدة قضايا هي أساساً قضايا سياقية، وإذا كان القدامى الذين سبقوا عبد القاهر من أصوليين ونحاة وبلاغيين ومتكلمين قد وظفوا السياق واعتبروه جسراً إلى معاني النص الخفية، فلم يكن عبد القاهر ليشتد عن ذلك فهو الآخر استهوته القراءة التي تستوحى من السياق دلالات النص، فسار مقتنيا نهج سيبويه في البحث عن كل الجوانب التي يمكن الوصول من خلالها إلى تقديم تفسير دلالي مقنع للنص وفي مقدمة هذه الجوانب السياق أو ما يعرف بالنظرية السياقية.

ولقد توصل عبد القاهر من خلال نظريته "النظم" إلى أن النظم الناجم عن مجموعة الروابط والعلاقات اللغوية، هو الذي يحدد معنى الكلمة، ويمنحها قيمتها ومزيتها، وأن لا قيمة لها خارج السياق، ومن هذا المنطلق استطاع عبد القاهر أن يحدد جوهر الدرس النحوي بأنه العلم الذي يبحث في وظائف الكلمة من خلال العلاقات السياقية اللغوية، وهو ما ينزه النحو عن مجرد بحث الخطأ والصواب، وحماية اللغة من اللحن، إلى إيضاح المعاني وبيان الفروق اللغوية والمعنوية بين حالات الاستعمال اللغوي (40)

ويؤكد أن لا تفاضل بين الكلمات المفردة دون النظر إلى السياق الذي وردت فيه: «وهل يقع في وهم وإن جهد. أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ... وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها» (41)

كما حاول أن يقنع المتلقي أكثر فأكثر أن الألفاظ وحدها مفردة بعيدة عن كل حكم بالإستحسان أو الإستقباح حتى تلج السياق، من أجل ذلك قد تكون اللفظة الموظفة ذاتها، و لكن النظم يختلف من مستعمل إلى آخر يقول: " وهذا باب واسع، فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلما بأعينها، ثم ترى هذا قد قرع السماك، وترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبدا، أو لا تحسن أبدا " (42)

وهذا الفهم يتوافق مع ما ذهب إليه المحدثون الذين منهم تمام حسان الذي قال:

"إن مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجاباً وسلباً، ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان هو ما أسماه "المقام"، وهو بهذا المعنى يختلف بعض اختلاف عن الأولين الذين رأوه حالاً ثابتة state، ثم جعلوا البلاغة مراعاة مقتضى الحال... وبحسب هذا الفهم الشامل لفكرة "المقام" يعتبر النص "المقال" منطوقاً كان أم مكتوباً - غير منبث عن ساقه ومن سيق إليه " (43).

فلن يكون الكلام بليغاً ما لم تتسجم فيه الألفاظ مع المعاني ، و يطابق ما يقتضيه حال المتلقي ، و يتلاءم مع الظروف المحيطة بالخطاب التي تكيف اختيارات اللغة ومستويات استعمالها، ومن أجل فهم صحيح و قريب من مقاصد المبدع فحسب الجرجاني يستوجب الأمر إعادة بناء المقام كما كان أثناء إنشاء الخطاب، فنجاح القول مرهون بمناسبته لظروف أخرى غير لغوية .

الخاتمة: وبناء على ما سبق فقد بين الجرجاني الكيفية المثلى لتشكيل و تلقي الخطاب الأدبي مما يجنب متاهات التأويل المتأثر بالذات القارئ، ميرزا جدوى "نظرية المقصدية" و عدها أساس كل فعل كلامي، بما في ذلك اهتمامه بخطاب المقدمات ، كما رصد ما أمكنه من القواعد التي إن حرص المبدع والمتكلم عامة على توخيها في تواصله ضمن لخطابه الإبلاغ و التواصل المطلوب، و لقد كان للسياق مساحة أثرية من خطاب الجرجاني الذي رد إليه كل عملية تواصلية ناجحة إن على مستوى التركيب اللغوي ، أو على مستوى الظروف المحيطة بعملية إنشاء الكلام، مما يعكس الأبعاد التداولية المبكرة في أبحاث القدامى، و انعكست تلك الأبعاد عنده أكثر في مباحث نظرية النظم النحوية و البلاغية.

الهوامش :

- (1) الجرجاني: دلائل الإعجاز - تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص: 46
- (2) - أحمد الشايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية ط: 1991، ص: 40.
- 3- الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص: 364.
- 4- ينظر أن روبرول و جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط: 1، 2003، ص: 206.
- 5- الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص 34-35
- (6) ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المستحدث، لبنان، ط: 2003، ص: 36.
- (7) - الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص: 42
- (8) - ينظر عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب القاهرة، (ب ط)، 1998، ص 372/ 373.

- (9) - حمادي صمو: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس - مشروع قراءة - منشورات الجامعة التونسية، السلسلة السادسة، مجلد: 21، 1981، ص 327
- (10) - الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص: 175/174.
- (11) - المصدر نفسه ، ص: 265.
- (12) - ينظر منقور عبد الجليل: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، (ب ط)، 2001 ، ص: 155/156.
- (13) - ينظر حمادي صمو التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس - مشروع قراءة ، مرجع سابق ، ص: 394.
- (14) - الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص: 263.
- (15) - عبد الفتاح لاشين، عبد الفتاح لاشين: التراكم النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، 1980، ص: 92/ 93
- (16) - الجرجاني: أسرار البلاغة، تح محمد شاكر - مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ط1، سنة 1412 هـ - 1991 م، ص: 05.
- (17) - الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص: 263.
- (18) - المصدر السابق ، ص: 286.
- (19) - ينظر ، محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، ط: 02، 2007 ، ص: 206/207.
- (20) - الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص: 264.
- (21) - حمادي صمو، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس - مشروع قراءة مرجع سابق، ص: 399/ 400.
- (22) - ينظر حسين جمعة: في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية)، حسين جمعة: في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (ب ط)، 2002 ، ص: 81.
- (23) - ابتسام حمدان: علاقة الكلام بالمتكلم في الدرس البلاغي، ابتسام حمدان: علاقة الكلام بالمتكلم في الدرس البلاغي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد: 74، الجزء: 04، أكتوبر 1999 ص: 1099.
- (24) - محمد نظيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصل، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص: 55.
- (25) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 93.
- (26) - المصدر السابق، ص: 83/82.
- (27) - ينظر حسين جمعة، في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية)، مرجع سابق ، ص: 82.
- (28) - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 46.
- (29) - المصدر نفسه ص: 267 / 268.
- (30) - عبد الجليل منقور: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، مرجع سابق ، ص: 159.
- (31) - ابتسام حمدان: علاقة الكلام بالمتكلم في الدرس البلاغي، مرجع سابق ، ص: 1098.
- (32) - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 52
- (33) المصدر نفسه ، ص: 267
- (34) - تمام حسان: قرينة السياق بحثٌ قُدِّم في (الكتاب التذكري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم) عبير للكتاب 1413 هـ 1993م، ب ط، ص: 67.
- (35) - ينظر محمود السعران: علم اللغة (مقدمة إلى القارئ العربي)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: 2، 1997، ر ص 339.
- (36) - محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، مصر، ط: 01، 2000، ص: 98.
- (37) - ينظر صلاح حسنين، علم الدلالة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ، ب ط، 2008، ص: 77.
- (38) - ينظر محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي، مرجع سابق ، ص: 113/114.
- (39) - بان صالح مهدي الخفاجي: المتكلم وأثره في بناء القاعدة النحوية في كتاب سيبويه، مجلة كلية الآداب، العدد: 97، ص: 181 .
- (40) - ينظر ابتسام أحمد حمدان: أسس نحوية ولغوية في التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد 3، 2010 ، ص: 21/20
- (41) - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 44
- (42) - المصدر نفسه ، ص: 48.
- (43) - ينظر تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب تمام حسان: اللغة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط01، 1994. ، ط: 05، 2006 ، ص : 351